أيُّ العلاج أنجعُ:

الإغاثةُ أم إنهاضُ الفكرِ وإصلاحُ المؤسَّساتِ؟

مصطفىٰ حجازي(*)

باسمِ اللهَّ الحقِّ .. العدلِ .. أصلِ كلِّ حقٍّ ومآلِه، وأصلِ كلِّ عدلٍ ومآلِه.

فضيلةَ الإمامِ الأكبرِ .. شيخَ الأزهرِ الشريفِ. أيُّ العلاج أنجعُ: الإغاثةُ أم إنهاضُ الفكرِ وإصلاحُ المؤسَّساتِ؟

أصحابَ الفخامةِ والمعالي والفضيلةِ والسعادةِ .. أصحابَ السيادةِ والغبطةِ والنيافةِ.

الحفلُ الكريمُ.

فىٰ رحابِ أزهرِ الإنسانيةِ قاطبةً نلتقي .. وتَسَعُنا مصرُنا التىٰ ما ضاقت يومًا.. ما بَقِيَت فيها فطرةُ التوحيد والتسامح والتوسيط..

السَّيِّداتُ والسَّادةُ.

يقولون: «الحُكمُ علىٰ الشيءِ فَرعٌ عن تَصوُّرِهِ».. قاعدة فقهية وقانونية.. وعقلية ومنطقية قبل ذلك.

أي قبل أن نُصدِرَ أحكامنا.. منحًا أو منعًا.. حلًّا أو عَقدًا، علينا أن نكون قد وَعَينا حقيقةَ واقعِ ما نتعامل معه.. وإلا نكُن قد تحركنا علىٰ غير منهجٍ، وحكمنا علىٰ غير بصيرةٍ.

وقبل ذلك نكونُ قد أفسدَنا من حيث نريد أن نُصلحَ.. حتىٰ وإن حَسُنَت نوايانا.. فحُسنُ النوايا لا يُغني عن سُوءِ التقدير.

قضيَّتُنا -أو قُل: تحدِّينا المبدئي- أن نعرف ونحن نتصدىٰ لقضايانا المصيرية.. قضايا البقاء والوجود .. أن نعرف في أيِّ عالَمٍ نحيا. وأيَّ إنسانيةٍ نخاطبُ. ومن أجل أي بشر نُصلِحُ وننهضُ.

الحفلُ الكريمُ.

نحن علىٰ مُفترَقِ طُرُقٍ، وعلىٰ موعدٍ مع نَسَقٍ معرفيٍّ إنسانيٍّ جديدٍ .. نَسَقِ ما بعد الصناعة، وما بعد المعلوماتية .. نسق الحكمة والذي تتحول فيه مَهمَّةُ قادة العقل والوجدان من المهامِّ التغييرية كما نَظَّر لها كثيرٌ من المفكرين .. إلىٰ أن يُصبِحَ دورُه أولًا تأويل العالم .. أن يَفقَهَ عُمقَ ما يحدُث حوله ويُؤوِّلَه.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ.

إن إدراكَ الفرقِ بين الواقعِ والحقيقةِ -والفارق لو نعلم عظيم- في طرحِ القضايا والبحثِ فيها هو السبيلُ إلىٰ إدراك نجاحاتها .. وهو -وبدون تزيُّدٍ- وعدُ هذا النسق الإنساني الجديد ووعيدُه.. وعده بالترقِّي، ووعيدُ التخلف والتردِّي.

أن نعلمَ أنه بقدر ما نَلِجُ الىٰ قضيتِنا من مدخلِ حقيقةِ الفقرِ والمرضِ لا واقعهما سيكونُ وعدُ النجاة والفوز لمنطقتنا والعالم من آتون جنون يُرادُ له..

الحفلُ الكريمُ.

وإن كان حديثُنا اليومَ قد توجَّبَ عن الفقرِ .. وهو أصلُ البلاء .. فإن لحظةَ الحقيقةِ التي تغشانا تُلزِمُنا أن نُحرِّرَ المصطلح لِنَعرِفَ عن أيِّ فقرٍ نتحدثُ.

الفقر وإن بدا فقر المالِ والموردِ .. وإن تجلىٰ فىٰ ظاهر العَوَزِ وضِيقِ ذات اليدِ والحرمانِ .. يبقىٰ ذاك واقعَه، ولكنها ليست أبدًا حقيقتَه.

الفقرُ تبقىٰ حقيقتُه هو فقرُ «الفكر» .. وفقرُ «الخيال» .. وفقرُ «الوعي» .. وفقرُ «الأهلية».

الفقرُ وإن بدا العَوَزُ والحاجةُ عَرَضُه وأثرُهُ الثقيل المُهين.. يظلُّ أصلُ دائه المَقيتُ القاتلُ هو «الجهلَ».. والنكوصَ عن أمانة العقلِ، والاستقالةَ من التفكير لقرونٍ.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ.

أصل الفقر سيظلُّ باقيًا فينا، وإن تعاملنا مع بعضٍ من قشور واقعه ما بَقِيَت العقولُ سجينةً سطحيةَ التفكير وغوغائيةَ الطرح والتفكير بغريزة البقاءِ.

وما دام الفكرُ الاقتصاديُّ في مواجهة أصل الفقر سجينَ فكرِ الإغاثة والتسكين .. وليس سياقًا للتنميةِ ..

ما دُمنا نَذهَلُ عن السببيةِ والغائيةِ وننتكسُ إلىٰ الكيفية في كلِّ فكرٍ وفعلٍ.

وتحدِّي الفقر سيبقىٰ يهدِّدُ استقامة مسيرة الحضارة الإنسانية، وفُرَصَ شَراكتنا فيها، ما دام العقلُ البشريُّ رهينَ مَحبِسَي مُجافاة الفكر بالمنطق والفطرة، وأُسلِمَ بالكلية للتفكير بالأذنِ واللسانِ.

وما بقي منطقُنا سجينَ الخطاب المزدوج الذي يتحدثُ عن التنمية، ولا يُقدِّمُ إلا نُذُر الإغاثة .. ولا يفهم غيرَ الإغاثة.

وما بقيت عقولُنا سجينةَ أوهامٍ تقول: إن الاقتصاد هو الموارد .. هو أموال تُجبى .. ومرافقُ تُبنى .. أوهامٍ لا تعرف أن الاقتصاد هو «قاعدة الثقة» التي تؤمِّن المواطن مستثمرًا أو عاملًا .. هو «سياق الحرية» الذي يُفضي للإبداع وللتنافسية المنتجة .. هو «عدل الإتاحة وعدل الثواب» .. قبل عدل العقاب والملاحقة.

الحفلُ الكريمُ.

حقيقةُ الفقرِ ستَبقى قائمةً مهما دَحَرنا مِن قشورِ واقعِه.

ما دام وجدانُنا حبيسَ الخوف من الإبداعِ.

حبيسَ الخوف من الحريةِ.

وكأني بِرِبعيِّ بنِ عامرٍ ذلك الصحابيِّ الجليل يُذَكِّرُنا بأن ما فهمه عن الدينِ في صدر الإسلام من مَنبَعِ نقائه، وهو مُبتعَثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لكبير الفُرسِ .. حين أجمَل ما يعتقده في الإسلام الذي عَرَّفَه بأنه الحُريةُ في أرقى صورها، والعدلُ في أنقى تجلِّياته، وكرامةُ الناس في كلِّ وقت حين قال: «نحن قومٌ ابتعثنا اللهَّ لنُخرِجَ العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللهَّ ربِّ العباد.. ومن جَورِ الأديان إلى عدل الإسلامِ.. ومِن ضِيقِ الدنيا إلى سَعَةِ الدينا والآخرةِ».

السَّيِّداتُ والسَّادةُ.

وأما في سياقنا الإنسانيِّ الأوسع .. فجَذوةُ الفقر والإفقار ستبقىٰ مشتعلةً ما دام عقلُ البشرية كلِّها استحال سجينَ الخوف من الآخر، والانتكاسِ نحو الانغلاق، والانكفاءِ علىٰ الذاتِ، وكأن البشرية تجدِّد رغبتها في الانتحار كلَّ نصف قرنٍ!

وما دام ضميرُنا الإنسانيُّ في أرجاء المعمورة يستثقلُ العدلَ، ويحبُّ الأَثَرةَ والميل للعنصرية!

وما دام الميلُ البشريُّ إلىٰ إشعال الحروب قائمًا في بشريةٍ نَمَّطَتها الصناعةُ فاستثقلت التفكيرَ الجادَّ العميق .. كقول «جون دووي» الفيلسوف الأشهر عن: لماذا يذهب الناسُ للحرب؟ بأنْ ليس لديهم وقتٌ للتفكيرِ.

الحفلُ الكريمُ.

الانتقائيةُ والاجتزاءُ في الحلِّ لن يُغِيثا حتىٰ وإن أردنا الإغاثةَ .. والسطحيةُ في تشخيص المشاكل الاقتصادية وفصلُها عن جذورها الاجتماعية والثقافية والسياسية إمعانٌ فىٰ الهروب من مواجهتِها!

الإمعانُ في التسويف .. والإصرارُ علىٰ تناول قضايا الاقتصاد اليومَ بما عجز أن يُداوِيَها بالأمسِ إمعانٌ في العجزِ.

لن يُداوِيَ فقرًا ولن يُعفِيَ من مرضٍ -إغاثةٌ هنا وهناك .. ولكن ما يُعينُ هو إنهاضُ فكرِ مجتمعاتنا يدًا بيدٍ مع إصلاحٍ مؤسسيٍّ جادٍّ.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ.

أمَا آن لنا أن نتصوَّرَ أننا قبلَ وبعدَ كلِّ شيء أناسيُّ أحرارٌ .. هكذا خُلِقنا .. وهكذا أراد لنا خالقُنا قبل أن تشاء حكمتُه أن نخوض غمارَ حركتنا في الحياة .. مسلمين أو غير مسلمين .. مسيحيِّين أو غير مسيحيِّين!

أمَا آن لنا أن نتصور أننا نُعَلِّم إنسانًا حرًّا قبل أن يكون تِرسًا في ماكينة توظيفٍ.. أو أننا نُطعِمُ ونُعالج إنسانًا مُكَرَّمًا قبل أن يكون جسدًا وُجِدَ ليبقىٰ حيًّا.. أو أننا نخاطبُ عقولًا مُستَخلَفةً لا رعيةً في قطيعٍ ولا أعناقًا تَذِلُّ وتَخضعُ!

أيُّ تَصَوُّرٍ غير ذلك هو تصوُّرٌ فاسدٌ فوق كونه قاصرًا .. ومنطلق ضالٌّ مضلٌّ لحل أيِّ قضيةٍ .. فقرًا كانت أو غيرَ فقرٍ، وإن بقيَ الفقر أصلَ البلاءِ.

فلا الناسُ بطونًا تمشي علىٰ الأرض، ولا بَبَّغاواتٍ عقلُها في أُذُنَيها، ولا آلاتٍ تُجبَرُ علىٰ الإنتاجِ والعملِ.

وإن لم نفعل سنبقىٰ مُندهشين من جُهدٍ يُنفَقُ، وموارد تُستَنزفُ، وإغاثةٍ لا تنقطع، ولكنها كحرثٍ في بحر لا طائلَ منه، ولا أملَ يُرجىٰ فيه.

ستزول عنَّا الدهشة تمامًا .. حين نؤصِّل لوجودنا علىٰ الأرض بأننا أحياءٌ «موجودون» فقط بقدر أثرِنا علىٰ هذه الأرض إبداعًا وإعمارًا .. لا تغلُّبًا وهيمنةً، وبغير ذلك لا وجودَ لنا حتىٰ وإن كنا أحياءً علىٰ جغرافيا أوطان.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ.

بقاؤنا هو بقاءُ الإنسانية فينا .. هو بقاءُ نفوسٍ تُبدِعُ أكثر من بقاء أرواحٍ في أجسادٍ تتنفَّسُ.

ولهذا المَقصِدِ نُحارِبُ الفقرَ وعلىٰ هذا المعيار نُعالجُ المرضَ!

الدهشة ليست قدرًا تاريخيًّا، ولا وظيفةً سياسيةً، ولا فضيلةً إنسانيةً، ولا هي سندَ عُذرٍ قانونيٍّ اسمه العذرُ بالدهشة كالعذر بالجهل .. الدهشةُ هي تجلِّياتُ الغفلة المؤجلة.. والتاريخُ لن يرحمَ «المندهشين»!

الحفلُ الكريمُ.

كانت تلك بعض من «كُناسة الدُكَّان»، لِما تبعثر من أحوال أمَّتِنا وإنسانيَّتِنا علىٰ مدىٰ عُقودٍ طالت .. نكأ جُرحَها الحديثُ عن فقرٍ في بلاد أَحرىٰ بها أن تكونَ هي أغنىٰ بلاد الأرض، بما استُخلِفَته من فكرٍ ودينٍ .. وعن جنس بشري كأنه أسطورةُ «سيزيف» استمرأ العذاب الأبديَّ .. نقولُها وإنسانيتُنا ما زالت تَملِكُ أن تَملِكَ زمام أمرِها إن وَعت وأرادت .. ولا نكتبُها كما كتب الوزيرُ لسان الدين بن الخطيب الأندلسي «كُناسة دُكانه» في أحوال «أندلسٍ» لم يبق منه إلا أسىٰ الزوال، وحكمةُ الأيام، وبصيرةُ المحنة.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ.

لن يكونَ لنا من «الفقر» نجاةٌ طالما بقيَ بعضُنا يريد «الجهل» مدخلَنا لمواجهة الفقرِ.

ولن يكونَ لنا من «الجهل» دواءٌ طالما بقيَ بعضُنا يعتمد «الكبر» سبيلَنا لعلاج الجهلِ.

ولن يكونَ لنا على «الكبر» نصرةٌ طالما أراد بعضُنا «الادِّعاء» لواءَنا في محاربة الكبرِ.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ.

لن يُغنِيَ من فقرٍ إلا فكرٌ ناجعٌ مبدعٌ.

فكِّروا .. فكِّروا .. تَغنَوا وتَستغنُوا.

دُمتم بخيرٍ.

وسلامُ اللهَّ عليكم ورحمتُه وبركاتُه.